المقامات الصّوفيّة فِي شعر سيدي لخضر بن خلوف.

أ. حاكمي لخضر
جامعة الدّكتور مولاي الطّاهر بسعيدة.

- **توطئة:**

لا يخفي على أحد أنَّ شعر سيدِي لخضر بن خلوف يجمع فِي ثناياه نبرات ثوريّة وأخرى عقديّة، ترتطِمُ الأخِيرة منها بطرق التّصوُّف الإسلامِيّ؛ الرّاسِمة عبر تاريخها وطقوسها الشّعريّة **معالم روحيّة**، تسعى عن طرِيقِها إلى تكوِين الإنسان تكوِيناً روحِيًّا؛ انطلاقا من قوله صلّى اللّه عليه وسلّم: «**إنّ فِي الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه، ألا وهي القلب؛**»[1] ولا غرو أنّ شعر سيدِي لخضر بن خلوف الصّوفِيّ، تظهر صوفيّته حِين حدِيثه عن مظاهر روحيّة؛ تبدو فِي عصرِنا هذا أحوج ما يحتاجه المرءُ، فِي وقتٍ طفق فيه الفكر المادِّيّ يأخُذُ أبعاد فِي غاية الخُطورة، والّتي قد تقلِّلُ من إِنسانيّة الإنسان بكلِّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى.

إِنّنا حينما نرتاد شعر سيدي لخضر فِي لحظة من اللّحظات، تستوقفنا مظاهر الزُّهد فِي الدُّنيا، والدَّعوة إلى الآخرة، وهذا هو المقصد الأسمى الّذي جاءت به الشّريعة الإسلاميّة السّمحة؛ بل إِنّنا حِينما نعتلِي الكلِمة الشّعريّة لسيدِي لخضر بن خلوف، نجد أنّ عُمُرَ هذا الشِّعر طوِيلٌ طولَ المرحلة البشريّة، وطافِحٌ طفاحة الحقِيقة الّتي لا يختلِفُ حولها اثنان؛ بل قل: إِنَّ شِعرَ

سِيدِي لخضر تتجلّى فيه الشّاعريّة، ليس لأنّه تأليفٌ شِعرِيّ من الملحون فقط، بقدرِ ما أنّ هنالك نبرات لغويّة يقف القارئُ مشدُوهاً فِي نسجِها، لأنّ هذا الأخِير ليس ممّن قام بتجرِبة سيدي لخضر أوّلاً، وليس ممّن هام فِي معراجيّة الحبّ الإلهِيّ ثانياً.

حِينما نقرأ أمهّات المصادِر الّتي تخصُّ التّصوُّفَ الإسلامِيّ[2]، ننتقِي عبر التّعابير الشِّعريّة لسيدي لخضر – رحمه الله تعالى– **مقامات صوفيّة،** تبدو كمن ينزاحُ من رتبة إلى أخرى، حسب نبوغه الرّوحِيّ؛ ونستشفُّ تلكم **المقامات** من خلال توظِيف العارف بالله بعض **الأغراض** الّتي ألِفناها فِي **الشِّعر العادِي** والّتي تُظهِرُ بقوّة البنيّة الرُّوحيّة، و**اللّغة العليا*** الّتي نعتبِرُها الوجه الحقِيقِيّ لرحلة هذا التّأليف:

أوّلا: مقام الحبِّ والعِشق مرهونٌ بغرض المدح:

نعتقِدُ أَنَّ مدح سيدِي لخضر للرّسُول صلّى اللّه عليه وسلّم لـم يكـن المدح الّذِي أَلِفْنَاهُ ضمن الأغراض الأدبيّة (الشِّعريّة)؛ إنّما كانَ مـدحاً يُعَبِّـرُ عن **مرحلةٍ مقاميّة** من مقامات الرُّوح الصُّوفيّة، لأنّهُ ليس مقصُوداً بِهِ مـدْحَ التّكسُّب، أو مدحاً لخوف العِقاب، أو هيبة من حاكمٍ، إنَّما المقصُودُ به صبابة الحُبِّ الرُّوحيّ غيرِ المعتُوه، وهو حُبُّ الله وحُبُّ رسُولِهِ صلّى اللّه عليه وسلّم وآل بيته الطّاهِرِين؛ اقتِداءً بِما جاءَ فِي الآية، ومـا نـصَّ عليـه الحـدِيث الشَّرِيفُ[3].

إِنَّ **مقامَ العشق** عند سِيدِي لخضر بن خلوف هو مقامٌ نراهُ يأخذُ أعلى نسبةٍ له فِي أشعار هذا المُتَرَوْحِن[4]؛ لأنَّنا نعتقِدُ أَنَّ بين سيدِي لخضر، وبين الرَّسُول صلّى اللّه عليه وسلّم كما بين المرءِ وظلّه الدّالّ عليه، لأنّ هناك

صلةً روحيّةً مستمدَّة من نظرة الأُبُوَّة، ونسل سيدِي رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم [5]، وإذن، فمدحيّة الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم، تبدو مدحيّةُ تضامٍّ كُلِّيّ، تنبُعُ من شجرةٍ مباركة، ولذلك تبدو العلاقة روحيّة فِي هذا المدِيح بالدّرجة الأولى، وتظهرُ تواتريّة هذا المدح- فيما نحسب- فِي حُبِّ **التّوحُّد بالذَّات المحمّديّة**، وتقلِيدِها، وأكثر من ذلك **الهُيّام** بِها، فشعرنا - ونحن نقرأ قصائِدَهُ الواحدة تلو الأخرى- أَنَّهُ يُخَلِّلُ هذا المدحَ بِمِعراجيّة الوصُول، فنراهُ يمدحُ سيِّدَنا محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم، ويمكُثُ عند أماكِن وصوله: (البُراق، سبع سماوات، العرش، الجنّة، الإسراء والمعراج)، فمثلاً يقول فِي قصيدة (العالم بالغْيُوبْ سيدي:

نَحْمَدْ ربّ السْمـــــا والارْضِ رَاوِي عنْ لَقْطَابْ جُمْلَة
اللَّوْحْ والعَرْشْ بْشَوْفْ لَحْظِي والحَرْفْ أَلِّي بْغَيْتْ يَتْلَـــى
السَّابَعْ دَرْتْ فِيهْ غَرْضِـــــي نَنْظُرْ فَوْقْ البْسَاطْ الاَعْلَى
خلِّي الحَاسَدْ يْزِيدْ حَسْدِي يَا وَيْحُو مَنْ كَـــانْ يَغْتَبْ

ويقول فِي قصيدة (اختارك الواحد الأحد):

النّاس صدقُوا بخبـــــارك * جهلــُوا حقيقة المعرِفة**
لو كان يعرفوا مقـــــدارك * يَا كامل البهَـــى والصِّفة**
يستْحسنُوا بْصِهْر صهارَكْ * عَسَى بْشَاعْرَكْ والشُّرْفَة[6]**

والمعرِفة فِي المنظور الصُّوفِيّ، تعنِي: «معرفة أسماء الله تعالى، ومعرِفة التّجلّيات، ومعرِفة خِطاب الحقّ بلسان الشّرع، ومعرِفة كمال الوجود، ومعرِفة الإنسان من جهة حقائقه، ومعرِفة الكشف الخيالِيّ، ومعرِفة

العلل والأدويّة.»[7] وهاتِيكَ معارِفُ جلّت عن الفهم، إلاّ لأرباب الأحوال، وأهل الذَّوق ممّن تكشّفت لهم الأنوار، وتلاشت عن بصيرتهم الحُجُب.

وما دمنا قلنا إنّ **النّبر المديحِي** يدلّ فِي الأصل على **نبرٍ تعشُّقِيّ**، فحِينئذٍ تظهر كشوفاته وإعلاناته من لدن سيدِي لخضر نفسه، حِينما قال:

يا عاشقِين خُوذُوا بيـــدِي ديرُوا صْحُوفْكُم واقراوا فِي لَسْوَارْ
قبلَ لاَّ يْنادِي المُنـــادِي عَزْرِينْ يَاكْ يَقْبَـــضْ فِي لَعْمَـــارْ
العشْقْ بَانْ وفْضَحْ سِرِّي وذَاتِـــي فَـــاتْيَـــة مَدْهُـــولـــة
يـــا زَايْرِينْ أَجُوا عندِي ونْقُولْ مرْحَبـــا بالضَّيْفْ إِذَا زَارْ[8]

و**العِشقُ** فِي المعتقد الصُّوفِيّ هو «آخر مقامات الوصول والقرب، فيه يُنكر العارفُ معروفَه، فلا يبقى عارفٌ ولا معروفٌ، ولا عاشق ولا معشوقٌ ولا يبقى إلاَّ العشق وحده، والعشق هو الذَّات المحضُ الصِّرفُ، الّذي لا يدخل تحت رسمٍ ولا نعتٍ ولا وصفٍ... فإذا امتحقَ العاشِقُ وانطمسَ، أخذَ العِشقُ في فناءِ المعشوق والعاشِق، فلا يزالُ يُفني منه الاسمَ ثمَّ الوصفَ ثمَّ الذَّات؛ فلا يبقى عاشق ولا معشوقٌ، فحينئذٍ يظهر العاشقُ بالصُّورتين، ويتَّصفُ بالصِّفـتين، فيُسمَّى بالعاشق ويُسمَّى بالمعشوق».[9] ومن هنا يظهـرُ العِشْقُ ممارسة حقِيقيَّةً فِي حياة سيدِي لخضر الرُّوحيّة، مادام يعنِي فناءً كليّاً فِي حضرة اللّطائف الرّحمانِيّة، أوليس هو القائل:

العشْقْ بَانْ وفْضَحْ سِرِّي وذَاتِـــي **فَـــانْيَة مَدْهُـــولـــة**

ونلفِي فِي أبيات أخرى اجتماع لواعِج الحبّ بنِيران الشّـــوق؛ لتنتهِـــي بعِشقٍ روحانِيٍّ، يعزُبُ عن اللّغة أن تُصَوِّرَهُ، يقول العارِف:

يَا رب العرْشْ هَزْنِي رِيح التَّشْوِيق لمْقَامْ الرسُولْ النَّبِي ما صُبْتْ طرِيقْ

عَشْقِي ومْحَبْتِي منْ شَقْ المَشْرِيقْ أَنَــا مــسْـكـــــينْ قَـــلْ زَادِي
مَا صَبْتْ مْنِينْ يَتْحَمَّلْنِي يَا سَادَاتْ يَحْمَـــــلْ رُوحِـــي مْــعَاهْ غَــادِي
أَنْشَمْ تْرَابْ أَرْضْ عُرْبَة دُونْ بْحَاتْ يَا سَعْـــــــدِي بالــرْسُول سَعْدِي
محمّد تاجْ الأَنْبِيَّـــا سِيدْ الأُمَّاتْ يَا سَعْـــدِي بالــرَّسُولْ سَعْـدِي[10]

وإذن، فهذه بعض المظاهِر الرُّوحيّة الّتي تبرِّرُ حقيقَةَ الشّاعِر الشّعبِيّ الجزائرِيّ، ومدى اتِّساقه وانسجامه جسداً ورُوحاً مع تعالِيم الدِّين الإسلامِيّ؛ وما ذاكَ إلاّ لأنّ الشَّاعِرَ ابنُ بِيئَتِهِ، وفرعٌ من ذلكم المدّ الفكرِيّ القادِم من شبه الجزِيرة العربيّة، حِينما طَفِقَ الفتحُ الإسلامِيّ يُبدِي تغييراً عارِماً لفهــم الوجود الإنسانِيّ؛ واهتمَّ بالجانِب الرُّوحِيّ للإنسان، مثلما اهتمّ بالجوانِب الجسميّة فيه.

ثمّ إنّ هذا الولِيّ أصبح مضربَ المثل فِي مدح سيّدِ الخلق صلّى اللّه عليه وسلّم، ومدحُهُ كانَ فِي الواقِعِ نقلاً أمِيناً لشخص سيِّدنا محمّد عليه السّلام، وبالتّالِي أصبح شعرُ هذا العارِفِ المكرَمِ « فنًّا قائِمَ الكَيانِ ناضِجَ الصُّوَرِ، مكتمِلَ الخَصَائِصِ، تناول فيه سِيرةَ الرَّسُولِ صلّى اللّه عليه وسلّم، بما فِيها من صِفات وشمائِل.»[11]

وقد رأينا سيدِي لخضر بن خلوف– مثلما شاء له القدر أن يكون– مرفوعَ الجنابِ والجَنان، من خلال ارتفاع ذكره مشارِق الأرض ومغاربها، برغم من أنَّ شخصهُ الموقّر عاش فِي فترة القرن التّاسع الهِجرِيّ[12].

ثانِياً: مقام التّوبة:

التّوبة فِي عُرفِ الصُّوفِيّة «أوّل مقام من مقامات المنقطِعِين إلى الله تعالى»[13]، وقد سُئِلَ ذُو النُّون رحمه الله تعالى عن التّوبة، فقال: توبة العوامّ

من الذُّنُوب، وتوبة الخواصّ من الغفلة[14]، ولمّا كانت التّوبة بِدايةَ السّالِكِين إلى الله تعالى، رأينا نبرات هذا المقام متجلِّيةً فِي شعرِ سيدِي لخضر على شكل أدْعِية محتواة فِي قصِيدة نُظِّمت لهذا الغرض، وأدعِية تتخلّل قصائدَ المدِيح، فمن النّوع الأوّل قوله رحمه الله:

يَا مَنْ هُو حَقْ لاَ إِلَــهَ إِلاَّ هُـــو (اغْفَرْ) ذَنْبِي بْتَـــــوْبْة آدَم وحَوَّا
وبالحَرمَيْنْ والصَّفَا والمَـــــرْوَا (اقْبَلْ) يَوْمْ الحْسَـــــــــابْ عُذْرِي
(اجْعَلْ) لِي مَـــا اسْعَيْتْ لَيْلَة هَنِيَّة والطَّاغُـــوتْ كَـــــانْ كُفْـــرِي
إِيمَانـــي بِيكْ سَرْ وعَلاَنِيَّـــــــة (ارْحَـــــــمْ) يَوْمْ أَنْزُورْ قَبْـــرِي
(أَغْفَرْ) لِي مَا مْضَى بْغَافِرْ التَّنْزِيلْ و(اصْلَحْ) لِي مَا بْقَى بْفَضْلْ المُزَمِّلْ
بالتَّوْرَاة والزَّبُورْ مْـــعَ الانْجِيـــلْ وبالفُـــــرْقَانْ (حُـــــطْ) وزْرِي[15]

ومن **النّوع الثَّانِي**، قوله:

يَا غَفَّارْ أَغْفَرْ ذَنْـــبْ الشَّـــــاعرْ والحَاضْرِينْ والسَّامْعِينْ لَفْظْ انْشَادِي
يَا سَاتَرْ العْيُوبْ أَنَا عَبْدَكْ قَاصَـــرْ لاَ عِلْـــــمْ لاَ اعْمالْ مَا هَيَّتْ زَادِي
الصْبَاحْ صَبَّحْ والظُّهْرْ وجَازْ العَصْرْ وضْيَاقَـــــتْ العْشِيَّة نَادَى المُنَادِي
رَبِّ حَنَّنْ لِي القَلْبْ القَاسَـــــــحْ يَا خَـــالَقْ العبَـــادْ أَنْتَ أَلِّي تَرْعَانَا
عَبْدَكْ الضْعِيفْ مُذْنِبْ دْمُوعُو سْيَاحْ الجُـــودْ والعْفُو مَـــنْ فَضْلَكْ يَرْجَانَا
سَعْدِي مْعَ النْبِي بَتْ مْعَاهْ البَـــارَحْ مْشَـــرَّفْ النْسَبْ جَابْهُولِي مُولاَنَا[16]

فالعارِفُ يتقرَّبُ إلى الله عزّ وجلّ بالطّاعات، فإذا تمكَّنَ وتحقَّقَ بذلك السُّلوك، شمِلتهُ أنوار الهِداية، وأتته العِناية، وحوته الرِّعاية، وشاهد ما شهِدَهُ بقلبِهِ من عظَمَةِ سَيِّدِه، فتابَ عن الملاحظة والسُّكُون، والالتِفات إلى ما كان من طاعته وأعماله وقرباته فِي حين إرادته وبداياته[17]، فشتّان بين تائبٍ يتوب

من الذُّنوبِ والسّيِّئات، وتائبٍ يتُوبُ من الزّلل والغفلات، وتائبٍ يتُوبُ من رؤية الحسنات والطَّاعات.

ثالثاً: مقام الزّهــد مرهونٌ بغرض الحِكمة والموعِظة:

و**الزُّهد** كما يرى الطُّوسِيّ رحمه الله تعالى:« مقام شرِيفٌ، وهو أساسُ الأحوال الرّضيّة، والمراتِب السّنيّة، وهو أوّل قَدَمِ القاصِدينَ إلى الله عزّ وجلّ، والمنقطِعِينَ إلى الله، والرَّاضِينَ عن الله، والمتوكِّلِين على الله تعالى، فمن لم يُحكِم أساسه فِي **الزُّهد**، لم يصح له شيءٌ مِمّا بعدهُ، لأنَّ حُبَّ الدُّنيا رأسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، و**الزُّهد** فِي الدُّنيا رأس كلِّ خيرٍ وطاعة.»[18] فإذا تسنّى لنا معرِفة **الزُّهد** فِي رؤيته الصُّوفِيّة الصّافِية، أمكننا استخلاصُ بعضِ مظاهِرِه فِي شعرِ هذا العارِفِ الورِعِ؛ ونستخلِصُ- دون شكٍّ- نوازِعَهُ وأبعادَهُ الّتي قعَّدت لكينونته عند سِيدِي لخضر.

عند قراءتنا لشعر سِيدِي لخضر بن خلوف تستوقِفُنا- إضافة إلى مقاميْ: الحبّ والعِشق- **مقام الزُّهد**، الّذِي رأيناه شدِيدَ الصِّلة بمظهريْ: الحِكمة والموعِظة، اللّذين ينشآن عن مِراسٍ وعِبرة كَفِيلين بتوخِّي الحذر من الدُّنيا، واعتلاء مقامات الآخِرة؛ وهذا المظهر الكائِنُ فِيها، يقُودُ العارِفَ - فِي غِيابه الرُّوحيّ- إلى ارتياد مراتِب الزُّهدِ حسب الحال والتّمكُّن[19]، لأنَّ التّمكُّنَ مكمنُ الرُّسُوخ على شيءٍ، وعدم الانزِياح عنه مهما حصل من أمور تدعُو إلى التّخلِّي عنه.

ألفينا مقامَ الزُّهدِ متمظهِراً فِي أبيات شعريّة عدِيدة، يبدو فِيها عُزُوفُ العارِفِ عن الدُّنيا، والحثِّ على تهيئة النَّفسِ والاستِعداد للآخرة؛ غير أنّ هذا العُزُوفَ نراهُ عُزوفَ المتروحِن المتوجِّس الأثر الملائِكِيّ، والغائِبِ بِكليّتِهِ

عن الخلق، وإلاّ لكانت هذه الحِكَم يسُوقُها أيُّ إنسانٍ خاض تجارِب فِي هذه الدُّنيا. ونعتقِدُ أنَّ الصِّفَةَ الزُّهدِيَّة لدى سيدِي لخضر تبقى **زهدِيّة العِلم واليَقِين**، وليس خشية العِقاب مثلما يعتقِدُ جلّ النّاس، وإلاّ لكان ما قاله من شِعر لا يقتصِرُ على مجرَّدِ عدِّهِ غرضاً فِي تجاربَ دُنيويّة فقط.

إنَّنا نُرجِّحُ هذا كون سيدِي لخضر رجُلاً صُوفِيّاً[20] بالدَّرجة الأولى، وهذا ما تُشِيرُ إليه أغلب قصائدِهِ؛ ومن هنا جاء الفرقُ واضِحاً بين تجرِبة الشَّاعِر فِي رِحلته الدُّنيوِيّة مع المجتمع والنّاس، وهو يدخُلُ ضِمن أهل الأدَبِ بِصِفةٍ عامّة، وتجربة الصُّوفِيّ فِي رحلتِهِ الأُخرَوِيّة، ويدخُلُ مع الخواصّ من أهل التَّعبِير.

يقول سيدِي لخضر– رحمه الله تعالى فِي قصيدته (آ سيدِي فارس المنَعْ):

الله يْثَبَّتْ الشْرَعْ يَوْمَ انْ نَضْحَى رْمِيمْ مَا بَيْنْ لْحَادِي
أنْهَارْ الشَّوْمْ والوْدَاعْ مَطْرُوحْ عْلَى التْرَابْ لاَ حَيْ اينَادِي
دَارْ الظَّلْمَة بْلاَ شْمَعْ يَوْمْ فْرَاقِي مْعَ احْبَابِي واولاَدِي
يُوقَعْلِي الخَوْفْ والفْزَعْ صَلَّى اللَّه عْلِيكْ يَا حَمَّدِي

ويقول أيضا:

يَا عَبْدْ إِذَا بْنَيتْ مَا يَبْقَى بُنْيَانْ حِيطَانَكْ تَمْسَى اخْرَابْ
وانْتَايَا لاَبُدْ منْ لَيْلَة لَكْفَانْ عَظْمَكْ يَرشَى عْلَى التْرَابْ
دِيرْ بالآيَة وجَانَبْ طْرِيقْ العِصْيَانْ وانْظُرْ مَا قَالْ فِي الكْتَابْ

وقال أيضا:

يَا عَبْدْ عْلاَشْ رَاكْ تَتْسَنَّـــــى بَرْكَـــــاكْ غِيرْ تُوبْ وصَـــلِّي
راكْ ظَـــــانْ مَنْزْلَكْ فِي الجَنَّة الحُـــــــورْ والقْصُورْ العَالِـــي
مَنْ غَيْرْ فَـــــــرْضْ ولاَ سُنَّة مَـــــا زَلْتْ غْشِيـــمْ يَا هُبَالِـــي

وقال:

الحَدْ والاثْنِينْ والثلاثَة والارْبْعَة ونَا بَيْنْ الجْبَالْ سَايَـــــحْ طُولْ اللَّيْلْ
عَيْنِي يَا عَاشْقِينْ سَخْفَتْ بالدَّمْعَة تَرْعَى لَفْصَالْ مَنْ عْوَاقَبْ جِيلْ بْجِيلْ
دْخَلْتْ تْلَمْسَانْ فِي نْهَارْ الجَمْعَـــة فِي جْبَلْ حْنِيفْ بَتْ سَاجَدْ للجَلِيـــــلْ
غِيرْ أَنَايَـــا وسَبْحْتِي[21]

تمعّن فِي مظاهِر الصِّفات الزّهدِيَّـــة فِي الأبيات الثّلاثة الأخيـــرة، لا شكّ أَنَّكَ ستجِدُ منهـــا مظهر السِّياحة، والبُكاء على تعاقُب السِّنين، والإكثار من السُّجُود باللَّيل فِي الخلوات، وحمل السَّبْحة، باعتبارها مظهراً دالاًّ على التّمسُّك بالأوراد؛ وهذه الطَّرِيقة نراها بالخُصُوص عند أهل التّصوُّف، الّذِين يرون أنَّ الذِّكْـــرَ لا يُؤْخَذُ إلاَّ مِنْ لَدُن شيخٍ عارِفٍ؛ يقِي المُرِيدَ طَرِيقَ المَهَالِك. وإِذا ما جمعنا بين حالتيْ: التّصوُّف كممارسة روحيّة، وبين الزُّهد كمرحلة روحيّة من مراحله، أمكننا القول: إِنَّ زُهدَ سِيدِي لخضر هو زهد **خاصّة الخاصّة** المتمثِّل فِي إِعراضِهم عن كُلِّ ما سِوَى الله من الأغراض والأعواض، الظّاهرة أوّلاً، والباطِنة ثانِياً، وعن كلِّ ما هو غير ثالثاً، وهذا الزُّهدُ يتضمّن الرّجاء والرّغبة والتبتُّل... وهي ما رأيناها كائِنةً فِي شِعرِ هذا الصُّوفِيّ.

انظر مثَلاً إلى قوله:

راغَبْ فِي الدُّنْيَا بْـزُهْـدِي فِي دِيـنِي شَفَّـيْتْ الاعْـدَا
يَا قَـطْعَانْ يْـدَيَّا بْـيَـدِّي مَا نَفَّـلْتْ حَتَّـى بْسَجْـدَة
يَا مُحَمَّـدْ يَا سِـيدِي صَلَّى الله عْـلِيكْ لَـبْـدَا[22]

ثُمَّ إِنَّ الزُّهدَ عند أهل الباطِنِ يُحِيلُ بالضَّرُورة إلى زهدٍ أرقى وأعظم، وهذا هو الزُّهدُ فِي الزُّهد، الّذي معناه استِحقارُكَ لِما زهدت فِيه، ولهذا كان الزُّهدُ فِي الدُّنيا سيّئة فِي نظر الخَواص،لأنّه لا يوجد شيءٌ ما سوى الله أعظم حتّى يرغبَ العارِفُ فِيه أوعنه، ومن تحقّق بِهـذا النّظـر اسـتوت عنـده الحادِثات، بتحقُّقِهِ شُمول إرادة الحقّ لِجمِيعِ المرادات.

رابِعاً: الكرامات مرهونة بالعطايا الإلهيّـة:

تعنِي الكرامة عند أهل الكشف: بُلُوغَ العبْدِ المُرَاد قبْلَ ظُهُورِ الإرادة[23]، وهي بالتّالِي مَدَدٌ إلهِيّ يُلْهِمُهُ تعالى إلى من يشاءُ من عِبادِهِ، فلا تتعلَّق إذن برياضة، ولا مُجاهَدَة، وإنَّما تتعلَّق بِعِلمِ الله بِعَبْدِهِ، بما لا دراية لهذا العبدِ بِهِ. وقد قسَّمَ ابنُ عربِيّ الكرامة- فِي مؤلَّفِهِ(الفُتُوحات المكيَّة)- إلى قسمين: كرامة حسيّة، وكرامة معنويّـة، أمّا الكرامات الحسيّة: فهي كرامات العامّة، مثل: المشي على الماء، وطيّ الأرض، والاطِّلاع على الكوائِن، والإخبار بالماضِي والحاضِر والمستقبل، أمّا الكرامات المعنويّة: فهي كرامات الخاصّة من عِبادِ الله، وهي كرامة العمل بشرِيعة القُرآن والتّمسُّك بِهـا.[24]

1) كرامة الصّلاة على النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، والدِّراية بالدِّين، والإلهـام الشِّعرِيّ المتتالِي، والمُرصَّع بألوان الحِكم الدُّنيويّة والأُخرَوِيَّـة:

وتتجلّى من خلال قوله:

يكْفِينِي صَدْقِي ونِـيَّة لَخْـضَرْ كِيفْ يكُـونْ خَاطِي

تِــسْعَة وتِسْعِينْ رُؤْيَة والعَــاطِــي مَا زَالْ يَعْــطِي
كَافَــانِي مُولْ الهْــدِيَّة واقْبَــلْ لِي مُــولاَيَا شَرْطِي

وقال:

عَرْفُونِي كِي رْجَعْتْ جَايَــــزْ فِي دِيــنِي كَامَــلْ الفْــــــهَامَــة
واعْطَــانِي الله عِلْــمْ فَــــارَزْ منْ كْــنُوزْ عَــــالَمْ العُلاَمَــــــا
نَبَّهْنِي لَمْدِيــحْ سِــيــــــدِي سْــقَــانِي مــنْ مَــــاهْ كَاسْ طَيِّبْ
امْــلاَهْ بَــمْدِيحْ طَــهَ الهَــادِي أَحْلَى مــنْ العْسَــــلْ وعْــــنَبْ
العَالَــمْ بَالغْيُــــوبْ سِيــــدِي سُبْحَانُــــو فــيــهْ مَــا نَكْــــذَبْ
أَعْطَانِي الله مَنْ المْخَــــازَنْ واعْطَاهْ لــــي فــيه مَــا نْضَــيَّــعْ
نُــوزَنْ شِعْرِي بَحْرُوفْ وَازَنْ بِسْــمِ الله وبِسْــم المُشَفَّــــــعْ
فِي ذَهْــبِي كُلْ يُــومْ بَايَــــنْ فِي الوَسْــطْ مْــعَــلْــمُوا بْطَابَــــعْ
نَجْهَــــرْ للبَــشِيــــــرْ وَرْدِي مَــنْ رَاسْ عُنْــصرُو يْــــــوَاتَبْ
العَالَــمْ بَالغْيُــــوبْ سِيــــدِي سُبْحَانُــو فــيهْ مَــا نَكْــــــذَبْ
الطُّــلْبَة يَكْــتْــبُوا ويَــمْــحُوا لَــخْضَرْ يَكْتَــبْ بْــلاَ قْــــــلُومَا
رَبِّي ذَا القَــوْلْ زَادْ شَرْحُــــوا مَحْــبُــــوبِي صَاحَــــبْ الغْــمَامَة[25]

فالنّباهة إلى حُبِّ النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم تُعدُّ فِي حَدِّ ذاتِها لوناً من ألوان الكرامة، واجتِباء الله تعالى للعبد، لأنّه جلّ وعلا قال: ﴿**إِنَّ اللّهَ وملائِكَتَهُ يُصَلُّونَ على النَبِي، يا أَيُّها الذِي آمَنُوا صَلُّوا عليه وسَلِّمُوا تسْلِيماً.**﴾[26] فما بالُكُ- أيُّها القارِئُ الكرِيم- إذا كانت هذه الصَّلاَةُ مُمارَسَةً يوميّة عند سِيدِي لخضر، حتَّى هام بِها فِي السّرِّ والعلَنِ، وفِي بطون الأودِية والشِّعابِ، والجِبالِ، وفِي اللَّيل والنَّهارِ... وفِي سَائِر الوقتِ الّذِي قَدَّرَهُ الله لهُ؛

وقد انتهت بلقائه برَسُول الله صلّى اللّه عليه وسلّم، لتُتَرْجَمَ حَقِيقَةُ هذه الصّلاة، وتلك المحبَّة الرَّاسِخَة فِي عُمر هذا العارِفِ.

2) كرامته فِي اللِّقاء برسول الله وسيّدنا جبريل عليهما السَّلام:

ما هُو شْـرَا منِّـــي ولاَّ بَـيْعَة ولاَ مـــنْ الفَارْسِيـنْ رَاكَبْ غوَّارْ
بَيـنِي وبَيْـــنْ مُـحَمَّدْ شْرِيعَـة هُو يـشُوفْ ونَـــا نقْرَا لَسْطَـارْ
كِيـمَا يْحَبْ سِيدِي لِيه المُطِيعَـة يَوْمْ الخْمِيسْ بَـاتْ مْعَايَا فِي الدَّارْ
ذِكْـرْ الرْسُولْ طَـهَ فِـيه وْزِيعَة أَنْـدْهُوا نْـوَزْعُوا مَنُّـوا يَا لَنْظَارْ
ذِكْـرْ الرْسُولْ طَـهَ فِـيه وْزِيعَة صَلُّوا عْلَى رْسُول الله يَا حُضَّـارْ[27]

أَيَّةُ لُقْيا هذه ؟ بل أَيَّةُ بُشْرَى يا تُرَى؟ لَعَمرِي، إِنَّهـا بُشْرَى اللِّقَاءِ بسيِّدِ الأَوَّلِين والآخِرِين، وأشرَف خَلْق الله ما دامت السّمواتُ والأرَضِين؛ وتلكم الرُّؤية تُؤَكِّدُ- عن كثب- أَنَّ الطَّرِيقَ الّذِي انتهجَهُ العارِفُ فِي حياتِهِ طرِيقٌ لا مِراءَ فِيه، ولا ريب فِي مِصْدَاقِيَّتِهِ، عمَلاً بقول المُصْطَفي الكَرِيم: «**من رآنِي فَقَدْ رآنِي حَقِيقَةً، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لا يَتَمَثَّلُ بِي.**»[28]

3) كرامته فِي اللِّقاءِ بِسِيدِي أَبِي مدين شُعيب:

يَوْمْ الجَمْعَة طْلَعْتْ سَـارِي للعُبَّادْ ثَـــــمَّ نَادَى وهَـبْ لِي بُومْكَحْلَة
نْصِيبْ مْغَارَة مْجَاوْرة سِيدِي عَابَدْ وَقفيتْ عْلَى السْجُودْ مَـا نَحْو القَبْلَة
نْظَرْتْ خْيَالْ جَا يْقَدْفَـــدْ كالفَدْفَادْ يَامَا حُسْنَـــه زَيْنْ مَكْمُـــــولْ الطُّولَة
ومَكَّنْـــــــتْ لَـــهْ بْرَيْـتِي
مْنِينْ قْرَاهَا أَنَا وايَّاهْ تْسَـــــالَمْنَا وعَجْبَـاتَهْ جْـمَاعْـــــــــــتِي
قْضَيْتْ مَنَّهْ مْسَايْـــي وتْعَاهَـــدْنَا آهْ يَا سَعْـــــــــــدِي وفَـرْحْتِـــي
مُحَمَّدْ الفْـضِيلْ مَفْـتَاحْ الجَنَّـــة مُحَمَّدْ رُوحِـــــــي ورَاحْتِـــــي

بَتْنَا مَتْجَادْلِينْ اللَّـيْلْ ومَا طَـــالْ عْلَى دِينْ النْبِي أَحْمَدْ طَــهَ المَبْرُورْ
قال: أنا بُومَدْيَنْ أَصْلِي مَنْ لَفْضَالْ منَ الأَنْدَلُسْ هَمْتِي فِيهَـــــا مَذْكُورْ
فقُلْتْ لَهْ: أَنَا بَنْ خْلُوفْ مَدَّاحْ المُرْسَالْ هَاوِينِي بالحْدِيـــــثْ يَا مَصْبَاحْ النُّور
أَبْقَـــى يَنْظُـــرْ فِي صِيفْتِي
بَعْدْ كْمال الحْدِيثْ قَالْ لِي يَا لَكْحَـلْ: خُوذْ الأَمَانَة وسِيـــرْ بِهَـا بِإِذْنِ الله
مِيَّة وعِشْرِينْ شَيْخْ مَنْ وَالِي كَامَلْ طَبْعُوا لَكْ بالنْصَافْ هَـا الكَاغَطْ قْرَاهْ
وكَمَّـلْ الخَتْمَة الشْفِـيعْ المُفَـضَّلْ سْقَاكْ بالسَّـرْ الزَّمْزَمِـي رَسُول الله
ادِّيـــــتْ منَّـــهْ أَمَانْتِي[29]

لقد تعرَّضَ عددٌ من العُلماء إلى سِيرة سِيدِي أَبِي مدين شُعيب دفين تلمسان؛ حياةً ونشأةً وتعلُّماً وسياحةً، فهو الشَّيخُ الزَّاهِد، العارِفُ بالله، قُطبُ التّصوُّف، القُدوة، أبو مدين شُعيب بن الحُسين الأنصارِيّ الأندلُسِيّ[30]، الإِشبِيلِي، المالِكِيّ، الصُّوفِي، الفقِيه، المُحدِّث؛ وكُنيتُهُ: «أبو مدين، تكنَّى بابنه مدين»[31] ذِي الخِصال الحمِيدة، دفِين مصر. ويُرجِّحُ بعضُ المؤرِّخِين أَنَّ سِيدِي أَبِي مدين وُلِد سنة[509هـ- 1115] [32]، وتوفي سنة 594هـ- 1200م، بعدما خاض فترات ذهبيّة فِي حياته، كانت مليئة بالعِلم والحِلم، والموعِظة الحسنة، والكرامات الّتي لا زالت تُردَّدُ إلى يومِنا هذا. وإِذا كُنّا نُقدِّرُ الفارِق الزَّمنِي بين سيدِي أَبِي مدين شُعيب، وسِيدِي لخضر بن خلوف، فإنّهُ يُقدَّر بأربعة قرون تقرِيباً؛ وهي فترة تبدو- فِي اعتِقادِنا- قرِيبة فِي حياة سِيدِي لخضر من أخبار سِيدِي أَبِي مدين، الّذي ذَاعَ صِيتُهُ آنذاك مشارِقَ الأَرْضِ ومغارِبِها، فكان ولازال- فِي تلك الحقبة- يُؤثِّرُ فِي رُوحِ سِيدِي لخضر التّائِقة إليه، والشَّائِقة إِلى لُقْيَاه؛ فكان أن حصلت تلك الرَّغبة، حِينما

هام على وجهِهِ، وفيضُ الوُجْدِ يَحملُهُ، والوارِدُ يُبَشِّرُهُ بالتقائِهِ بأبِي مدين شُعيب يَوْمْ الجَمْعَة فِي سفح الجبل عند مركز العُبَّادْ **(يَوْمْ الجَمْعة طْلَعْتْ سَارِي للعُبَّادْ ثَمَّ نَادَى وهَبْ لِي بُومْكَحْلَة)**، وتصيرُ هذه المرحلة الرُّوحيّة مرحلة يتوقّفُ فِيها الزّمنُ الصُّوفِيّ، وتتعاضدُ فِيها الذَّاتان الصُّوفِيَّتان تعاضُداً رُوحِيًّا، لتنتهِي ببُشارتين سعِيدتين: الأولى: رضا أولياء الله تعالى عن سيدِي لخضر، ونلفِيها فِي قوله:

(مِيَّة وعِشْرِينْ شَيْخْ مَنْ وَالِي كَامَلْ طَبْعُوا لَكْ بالنْصَافْ هَــا الكَاغَطْ قْرَاهْ)

والثّانِيّة: رِضى رسول الله صلّى اللّه عليه وسلّم عنه، من خلال قوله:

(وكَمَّــلْ الخَتْمَة الشْفِــيعْ المُفَــضَّلْ سْقَاكْ بالسَّرْ الزَّمْزَمِي رَسُول الله).

4) ومن كراماته الجزْم بِوُقُوع شيء فِي المُستقبل، وحُدُوثه فِعْلاً حتّى فِي زماننا هذا:

إِذَا طَالَتْ عُمْرَكْ تْشُوفْ مَا تْشُــوفْ تَتْفَكَّـــرْنِي ولَوْ كُنْتْ فِي الْــكْفَــانْ
وتْقُولْ مَا قَالْ الشَّاعِرْ ولَــدْ الخْلُوفْ الله يَرْحـــمْ عْظَامَهْ يَا أَهْلْ الحْسَانْ
تْغِيبْ نَاسْ اليَرْ وتَبْقَى أَهْل الخْزُوفْ تَابْعِينْ الرِّبَــا وخْدَايَـــــمْ الجْفَــانْ
المْسَالَــة مَنْ دُونْ جْهَــارْ صَافْــيَة مْشَمْتِينْ الضَّحْكَــة تَمْثِيلْ القْـــرُودْ
لاَ حْدِيثْ يْوَالَـــمْ لاَ قْــلُوبْ صَافْيَة مْخَيْــبِينْ العَاهَدْ نطْفَة مْــنَ اليْهُــودْ

عْلِيكْ صَلَّى اللهُ يَا سَعْدْ السْعُــودْ

الخْدِيعَة تَكْثَرْ فِي جْوَامَعْ البْـــلاَدْ والعْبَادْ يَـــــاكْ تْعُــودْ خَايْفَـــة
الإمام يْشَمَّــرْ ذْرَاعُ عْلَــى الزْنَادْ نَاكْرِينْ الأُصُول فِي الصــفْ وَاقْفَــة
سَاجْدِينْ بْغَيْرْ وْضُو مَنْ اولاَدْ عَادْ أَصْلْهُمْ مَنْ أَصْلْ الحَيْة التّـــــالْفَة
المْسَاجَدْ تَعْمَرْ باهْلْ المْخَالْيَـــــة الخْدِيعَة فِي الجْوَامَعْ وَقْتْ السْجُــودْ

لاَ عْمَلْ لاَ مَعْمــولْ لاَ قْلُوبْ رَاوْيَة الْمْفَاتَة تَرْجَفْ مَا كَانْ من يْجُـــودْ
فِيكْ رَاهُمْ يَرجَاوْا لَعْبَة ورَاضْيَـــــة يَا عْرُوسْ الجَنّــَة يَا فَارَسْ الخْلُودْ
عْلِيكْ صَلَّى اللهُ يَا سَعْدْ السْعُــودْ[33]

هذا، ومهما قيل عن سِيدِي لخضر عبر هذه الأحرُف، قد لا يستوعب جمِيع المقامات الّتي خاضها العارِفُ فِي رِحلته الصُّوفيَّة، لأنَّهُ قد يصْمُتُ عن أَحَدِهَا تجنُّباً لانفِضاح السّرِّ، وذهاب الكرامات لقول عبد القادر بن محمّد رحمه الله:

ولولا فُشُوّ السرِّ كُفْرٌ بِعينِهِ لَبُحْتُ بِهِ، ولكن أولى التّصمُّتِ

– الإحالات:

1– أخرجه البُخارِي فِي كتاب الإِيمان، باب فضل من استبرأ لِدِينه، الحدِيث 50، وفِي كتاب البُيُوع34، باب الحلال بيِّن والحرام بيِّن، الحدِيث 1910، ومسلم فِي كتاب المســاقاة، باب أخذ الحلال وترك الشُّبُهات، حديث2997.

2– ومن أهمّ هذه المؤلّفات:

– **ابن عربيّ:**

– ذخائر الأعلاق، شرح ترجمان الأشواق، تحقيق ودراسة نقديّة: د/ محمّد علم الدّين الشّــقيريّ، كليّة الدّراسات العربيّة، جامعة ألمنيا، ط1، 1995م.

– الفتوحات المكيَّة(أربعة عشراً سفرا)، تح: د/ عثمان يحــي، تصــدير ومراجعــة د. إبــراهِيم مدكور، المجلِس الأعلى للثَّقافة بالتّعاون مع معهــد الدِّراسات العليــا بالسّــربون، الهيئــة المصريّة العامّة للكتاب، 1985م.

– المبادي والغايات في معاني الحروف والآيات، ويليه العقد المنظوم فيما تحويه الحــروف مــن الخواصّ والعموم، تح: سعيد عبد الفتّاح، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.

– كِتابُ الحُجُب، تح: سعيد عبد الفتَّاح، مكتبة الثَّقافة الدِّينية، ط1، 2004م.

- اصطلاح الصّوفيّة، تح: عبد الرّحيم ماردِينيّ، دار المحبّة، دمشق، ودار آيــة، بيــروت، ط1، 2002-2003م.

- **محمد عبد الجبار النّفريّ:**

- المواقف والمخاطبات، آرثر اربوي، تقديم د. عبد القادر محمود الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1985م.

- **نور الدِّين أبِي الحَسَن علي بن يُوسف الشَّطنُوفيّ:**

- بهجة الأسرار ومعدِن الأنوار في مناقِب القُطب الرّبّانِي الشّيخ الإمام عبد القادر الجِيلانِيّ، تح: د/ محمّد حُسنِي مصطفي، دار القلم العربيّ، سوريا، حلب، ط1، 2003م.

- **القُشيري أبو القاسم:**

- الرِّسالة القشــيريّة في علم التّصوُّف، تح:معروف مصطفي رزيق، المكتبة العصريّة للطِّباعــة والنّشر، بيروت، لبنان، ط، 2003م.

- **الجيليّ (الشّيــخ عبد الكريم بن ابراهِيم):**

- الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، تح: أبو عبد الرّحمــن صلاح بــن محمّــد بــن عويضة، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 1997م.

- كشف الغايات فِي شرح ما اكتَنَفَت عليه التَجَلِّيات (متن التّجلِّيات الإلهِيّة للشّيخ الأكبــر محــي الدِّين بن عــربيّ)، تح: محمَّد عبد الكرِيم النَّمرِيّ، دار الكتُب العِلمِيّة، بيروت، لبنان، ط1، 2008م.

- **الطُّوسيّ، أبو نصر السرَّاج:**

- اللَّمع، تح: عبد الحليم محمود وطه عبد الله سرور، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ومكتبة المثنَّى، بغداد، 1960م.

- **مصطفي بن سليمان بالي زاده الحنفيّ:**

- شرح فُصُوص الحِكَم لابن عربيّ، تح: الشّيخ فادي أسعد ناصيف، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

- عبد الرّزّاق **القاشانيّ:**

- لطائِف الأَعلاَم فِي إِشَارات أهل الإلهَام تح: أ.د/ أحمد عبد الرَّحيم السَّايح، والمستشار توفيق علي وهبة، وأ.د/ عامر النّجَّار، مكتبة الثَّقافة الدِّينيّة، ط1، 2005م.
- معجم اصطلاحات الصُّوفيّة، تح: د/ عبد الخالق محمود، مكتبة الآداب، القاهرة، ط3، 2007م.
- اصطلاحات الصُّوفِيّة ويليه رشح الزُّلال فِي شرح الألفاظ المتداولَة بين أرباب الأذواق والأحوال، تح: د/ عاصم إبراهيم الكيّالِي الحُسيني الشّاذلِيّ الدّرقاوِيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2005م.

- مُلاَّ حَسَن بن موسى البانِيّ القادِرِيّ:

- شرح حِكَم الشَّيخ الأَكبر سيدِي محيّ الدِّين بن عربِيّ، تح: الشّيخ أحمد فريد المزِيدِيّ، دار الكُتُب العِلميّة، بيروت، لبنان، ط1، 2006م.

- محمّد أحمد عليّ:

- مقامات العِرفان، مؤسَّسة الانتِشار العَرَبِيّ، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

- الشّيخ عبد الغنِيّ بن إسماعِيل النّابُلسِيّ:

- خمرة الألحان ورنّة الحان، شرح رسالة الشّيخ أرسلان، تح: الشّيخ عبد الوارِث محمّد علي، دار الكتب العِلمِية، بيروت، لبنان، ط1، 2000م.

-أبو حيّان التّوحيديّ:

-الإشارات الإلهيّة، تح: عبد الرّحمن بدويّ، وكالة المطبوعات، الكويت، ودار القلم، بيروت، لبنان، ط1، 1981م.

- ابن عطاء الله السّكندرِيّ:

-كتاب الحِكَم، إعداد وتقدِيم: د/ عبد الحمِيد صالح حمدان، مكتبة مدبولِيّ.

-أحمد زرُّوق الفاسِيّ:

- شرح الحِكَم العَطَائِيّة، تح: مصطفي مرزوقِيّ، دار الهُدى، عين مليلة، الجزائِر، 2003م.

- محمّد أحمد عليّ:

- مقامات العِرفان، دار الانتِشار العربِيّ، بيروت، لبنان، ط1، 2007م.

*- نعني بالشِّعر العادِي، الشِّعر الّذي ألفناه منذ العصر الجاهِلِيّ إلى يومنا الحالِيّ، والّذي يُعبِّرُ فيه صاحبه عن رؤية كونيّة (دنيويّة) بالخُصُوص، وهو بالتّالِي غيـــر الشِّـــعر الصُّـــوفِيّ، لأنّ صاحِبَهُ يُوظِّف عناصِر التّعبير الشِّعرِيّ العادِي، مُعبِّراً به عن رغبة فردوسيّة، وبالتّالِي نجد هذا اللّون من الشّعر يعتلِي خوارِق الوضع اللُّغوِيّ من ناحية التّصوِير؛ ومن ثمَّ فلغته- فِـــي تقدِيرِنا- أقرب من أن نُنعِّتَها **باللُّغَةِ العُليا**، لأنّ هذه الأخِيرة تعمل علـــى" إلغـــاء محدُودِيّـــة الدَّلالة فِي لغة الشِّعر، والتّحوُّل إلى الرّمزيّة المطلقة، وإلى مبدإِ التَّجاوز والاتِّساع المُطلـــق، وخرق مثاليّة الوضع والعُرف، أوالخُرُوج المتواصِل على قوانِين البِناء المنطِقِيّ المحـــدود، ومدّ عمليّة الاسناد وإطلاق سراح المعنى إلى حدِّ التّحرُّر من فكرة عقلانيّتِهِ، والانتِقال بـــه من حدود الوظِيفة الذِّهنيّة أوالتّمثِيليّة المتعارفة إلى الوظِيفة العاطِفِيّة الانفِعاليّـــة أوالمِزاجيّـــة غير المحدودة. " يُنظر: د/ أحمد محمّد معتوق: اللّغة العُليا، دراسات نقديّة فِي لغة الشِّـــعر، المركز الثّقافِيّ العربِيّ، الدّار البيضا، المغرب، ط1، 2006م، ص: 11 .

3- لقوله تعالى: ﴿**رحمـــة الله وبركـــاته عليكم أهل البيت، إنّهُ حمِيدٌ مَجِيد**﴾ [سورة هود، الآية 73]، وقوله جلّ وعلا: ﴿ **إنّما يُرِيدُ الله لِيُذْهِبَ عنكُم الرِّجْسَ أهلَ البيتِ ويُطهّركم تطهِيراً**﴾ [سورة الأحزاب، الآية: 33] وقال رسول الله صلّ اللّه عليه وسلّم: «**إنَّ الله خَلَقَ الخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِ خَلْقِهِ، وجعلهم أفراقاً فجَعَلَنِي فِي خَيْرِ فِرْقَةٍ، وجعلهم قبائِلَ فجعلنِي فِي خيرِ قبِيلةٍ، وجعلهم بيوتاً فجعلنِي فِي خيرِ بيتٍ، فأنا خيْرُكُم بيتاً، وخيركُم نسباً**» أخرجه التّرمذيّ فِي الحدِيث رقم 3607، والإمام أحمد في المسند مجلد 1، ص: 210، وضعَّفَهُ الألبانِيّ فِي ضعِيف الجامع، رقم 1605، والسّلسِلة الضَّعِيفة رقم 3073.

4- وقد قال:

مدحِي مفروز كالحلِيب بيض صافِي صافِي من عزّاة القطوف

نمدح سيـــد العباد طه المقـــطافِي ما دامـــت عينِي تشـــوف

فلا تكاد تقرأ قصِيدة من قصائِده خالية من مدح سيّد المرسلِين. (للاطِّلاع، يُنظر: منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، سيدِي لخضر بن خلوف، حياته وقصائِدُهُ، منشورات دار الغرب للنّشر والتّوزِيع، وهران، ج1، ص: 47.)

5- لقولـــــــه:

الله يرحـــم قايل لبيـــات لكحل واسم باباه عبد الله

المشهور اسمه فِي لنعات مغراوِي جدّه رسول الله

وأمّه جات من القرشيّات اليعقـــوبيّـــة لالاّ كـــلّة

(يُنظر: منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، المرجع السّابِق، ج1، ص: 24.)

6- المرجع نفسه، ص: 67،94 .

7- ابن عربيّ: المعرِفة، تح: محمّد أمِين أبو جوهـــر، دار التّكوِين، حلب، دمشق، ط2، 2006م، ص: 21.

8- يُنظر: منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، المرجع السّابِق، ج1، ص: 162 .

9- عبد الكريم الجيليّ، الإنسان الكامل في معرفة الأواخر والأوائل، المصدر السّابق، ص: 85.

10- يُنظر: منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، المرجع السّابِق، ج1، ص: .232

11- جمال الدِّين خيّارِيّ: أغراض الشِّعر الشّعبِيّ فِي الجزائِر، مجلّة الثّقافة، عـــدد43، 1978م، ص: 49 .

12- يُنظر: المرجع نفسه، ص: 21.

13- **الطُّوسيّ:** اللّمع فِي التّصوُّف، المصدر السّابِق، ص: **68.**

14- المصدر نفسه، ص: 68.

15- منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، المرجع السّابِق، ص: .74

16- المرجع نفسه، ص: .141

17- لا يستدعِي المقام هنا تبسِيط معنى مقام التّوبة وتذلِيله بسهولة، ولذلك أُشِيرُ على من يبتغِـــي معرِفَةَ هذا المقام أن يُعرِّجَ على كتاب اللّمع فِي التّصوُّف للطُّوسِيّ، ص: 68-69، وبشرحٍ أكثر تفصيلا فِي كتاب: لطائِف الإعلام فِي إِشارات أهلِ الإِلهام للقاشـــانِيّ، ج1 مـــن ص: 287 إلى ص: 296.

18- **الطُّوسي:** المصدر السّابِق، ص: 71، 72. وأيضا: القاشانِيّ: لطائِف الإِعلام، المصدر السّابِق، ج2، ص: 415، وينظر: **محمّد أحمد عليّ:** مقامات العِرفان، المرجع السّابِق، ص:

76، وهذا فصل يتحدَّثُ فِيه المؤلِّفُ عن مقام الزُّهــد، بشيءٍ من التَّفصيل، وللتّفصيل أكثــر، يُنظر:**الإمام أحمد بن حنبل الشَّيبانيّ**، الزُّهــد، خرّج أحاديثَهُ: محمّد بن عيَّادِيّ بن عبد الحليم، مكتبة الصّفا، القاهرة، ط1، 2003م. ويُضيفُ الطُّوسِيّ رحمه الله تعالى قائلاً:"والزهّاد على ثلاث طبقات:

فمنهم المبتدِئُون: وهم الّذين خلت أيديهم من الأملاك، وخلت قُلُوبُهُم بِما خلت منه أيديهم، كما سُئِلَ الجُنيد رحمه الله عن الزُّهد، فقال: تخلِّي الأيدِي من الأملاك، وتخلِّي القُلُوب من الطَّمَع، وسُئِلَ سَرِيُّ السّقطِيّ رحمه الله عن الزُّهد، فقال: أن يخلُو قلبه مِمّا خلت منه يداه.

وفرقة منهم **متحقِّقُون فِي الزُّهد:** وصفهم ما أجابَ رُوَيم بن أحمد رحمه الله، حِينَ سُئِلَ عن الزُّهدِ فقال:ترك حُظُوظ النّفس من جمِيعِ ما فِي الدُّنيا، فهذا زُهْدُ المتحقِّقِين، لأنّ فِي الزُّهدِ فِي الدُّنيا حَظًّا للنَّفسِ، لِمَا فِي الزُّهد من الرَّاحة والثّناء والمحمدة، واتِّخاذ الجاه عند النّاس، فمن زهد بقلبه فِي هذه الحُظُوظ فهو متحقِّق فِي زُهدِهِ.

والفرقة الثّالِثة: **علموا وتيقّنُوا:** أن لو كانت الدُّنيا كُلُّها لهُم ملكاً حلالاً، ولا يُحَاسِبُون عليها فِي الآخِرة، ولا ينقص ذلك مِمّا لهم عند الله شيئاً ثمّ زهدوا فِيها لله عزّ وجلّ، لكان زُهدُهُم فِي شيءٍ منذ خَلَقَها منذ خلقها الله تعالى ما نظر إليها، ولو كانت الدُّنيا تزِنُ عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافِرَ منها شربة من ماء، فعِند ذلك زهِدُوا فِي زُهدِهِم، وتابُوا من زُهدِهِم."

وطائِفةُ العارِفِين بالله لا يعدُّون مجرَّدَ التّركِ زهداً، لأنّ التّارِكَ للشّيءِ عندما يتركه بجوارِحِهِ، فربَّما كان مشغُوفاً به بقلبه، وهؤلاء هم الزّهّاد غير العارِفِين، الّذِين يشترُون بِمتاعِ الدُّنيا متاعَ الآخِرة. أمّا الزّهّاد العارِفُون، فهم الّذين لا يكون إعراضُهُم عن متاعِ الدُّنيا وطِيبتِها لذلك الغرض الّذي نحاهُ غيرُهُم، بل لغرضين آخرين: أحدهما: فِي حالة التوجّه إلى ربّه، وثانِيهِما: عند رجوعه من عنده.

أمّا ما هو له عندما يتوجّه إلى الحقّ، فإنّه حِينئذٍ يعرِضُ عن كُلِّ ما سواهُ تنزِيهاً لسيره عن الاشتِغال بغير ربِّهِ. وأمّا ما هو عندما يرجِعُ من الحقِّ إلى الخلق، فهو أن يعرِضَ عمّا سِوى الحقّ من جهة أنّه تكبّرَ بالحقِّ على الباطِلِ.

وإذا كانت هناك أصناف للزّهد، كانت أيضاً هناك مراتب له، وهي- كما ذكرها القاشانِيّ رحمه الله-:

زهد العامّة: التّنزُّه عن الشُّبُهات بعد ترك الحرام، حذراً من المعتبة، وأنفة من المنقصة، كراهة مساوئ الفُسّاق.

زهد أهل الإرادة: النّزاهة عن الفُضُول بترك ما زاد عمّا تحصُلُ به المسكة، وبقاء الرّمق لقدر البلاغ من القُوت اغتِناماً للفراغ إلى عمارة الوقت، والتّحلِّي بحلية الأنبياء والصّدِّيقين.

زهد خاصّة الخاصّة: هو إعراضُهُم عن كُلِّ ما سِوَى الله من الأغراض والأعواض، الظّاهرة أوّلاً، والباطِنة ثانياً، وعن كلِّ ما هو غير ثالثاً، واعلم أنّ الزُّهدَ يتضمّن الرّجاء والرّغبة والتّبتُّل...

الزُّهدُ فِي الزُّهد: معناه استِحقارُكَ لِما زهدت فِيه، ولهذا كان الزُّهدُ فِي الدُّنيا سيّئة فِي نظر الخَواصّ، فإنَّ ما سِوَى الحقّ سبحانه وتعالى أيّ شيءٍ هو حتّى يرغبَ فِيه أوعنه، ومن تحقّق بِهذا النّظر استوت عنده الحادِثات، بتحقُّقِهِ شُمول إرادة الحقّ لِجمِيعِ المرادات.

19- **التّمكّن- كما قال القاشانِيّ فِي مؤلّفه السّابِق ج1، ص: 282 -:** عبارة عن غاية الاستقرار فِي كُلِّ مقام، بحيث يَصِحُّ لِصاحِبِهِ القُدرة على التّصرُّف فِي الفِعلِ أوالتّرك، وأكثر ما يُطلق فِي اصطِلاحِ الطَّائِفة على من حصل له البقاء بعد الفناء، وتارة يُطلقُ التّمكُّن على ما قبل ذلك من المقامات، ولهذا جعلُوا التّمكُّنَ على مراتِب ثلاث؛ **تمكّن المُرِيد، وتمكُّن السَّالِك، وتمكُّن العارِفِ.**

20- والصُّوفِيّ يلجأُ فِي أغلب الأحيان إلى التّوسُّل بالقرآن الكرِيم، والكتب المنزّلة، وبالأنبِياء والصّالِحِين وبالأماكِن المقدّسة. يُنظر: منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، المرجع السّابِق، ج1، ص: 74- 78 .

21- يُنظر: المرجع نفسه، ج1، ص: 63-67، 161، 177.

22- نفسه، ص، 91 .

23- الطُّوسِيّ: المصدر السّابق، ص: 265 .

24- نقلاً عن: د/ عامر النّجّار: الطّرُق الصُّوفيّة فِي مصـــر: نشأتها ونِظامهـــا وروّادُهـــا، دار المعارِف، مصر، ط5، ص: 48 .

25- يُنظر: منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، المرجع السّابِق، ج1، ص: 92، 95، 96 .

26- سورة الأحزاب، الآية: 56 .

27- نفسه، ص: 136.

28- وهذا الحدِيث أخرجه الإِمام أحمد فِي المُسند، ج2، رقم 332.

29- يُنظر: منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، المرجع السّابِق، ص: 178 .

30- يُنظر على سبيل التّمثِيل لا الحصر: يوسف بن يحي بن الزيّـــات: التّشـــوُّف إلـــى رِجـــالِ التّصوُّف، تح: أحمد توفِيق، منشورات كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، الرِّباط، 1984م، ص: 319 .

31- عبد الوهّاب الشَّعرانِيّ: الطّبقات الكبرى (لواقِح الأنوار فِي طبقات الأخيار)، دار الفكر، بيروت، لبنان، ج1، ص: 133.

32- نقلاً عن: محمّد الطّاهر علاَّوِيّ، العالـــم الربَّانِيّ سِيدِي أَبِي مدين شُعيب، ج1، دار الأمّـــة، برج الكيفان، الجزائِر، ط1، 2004 م، ص: 14 .

33- منشورات جمعيّة آفاق مستغانم، المرجع السّابِق، ص: 238.